نصوص الشعر والشعراء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

(رسالة دكتوراه)

الباحث: الحسين زروق - المغرب

لما نزل القرآن الكريم فزعت العرب إلى الشعر باعتباره علمها الأول وديوان حياتها تقيسه عليه، وتوظفه ضد الإسلام والمسلمين، وبذلك صارت للشعر قيمتان: علمية ووجودية، تتولى الأولى تمحيص جنس القرآن الكريم، وتتولى الثانية الدفاع عن الوجود الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للعرب وقتها، لذلك تكرر ورود الشعر والشعراء في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومناسبة هذا الورود تدفع إلى التساؤل: ما موقف الإسلام من الشعر والشعراء؟

لقد أُنجزت في الموضوع نفسه دراسات ملأت الدنيا وشغلت الناس، وحجبت عن معظم النقاد آفاقا للبحث أكثر فائدة وقيمة وعمقا، ومن تلك الآفاق ما يرسم معالمه هذا السؤال:

- ما تصور الإسلام للشعر؟

وقد تصدى دارسون لموضوع الإسلام والشعر، منهم من عني بجمع النصوص الحديثية كالحافظ عبد الغني المقدسي(- ٦٠٠هـ) في كتابه «جزء من أحاديث الشعر»، جمع فيه ثلاثةً وأربعين حديثا، وكأبي الفتح المعروف بابن سيد الناس(- ٧٣٢هـ) في كتابه «منح المدح»، جمع فيه ما قاله مائةٌ وأربعةٌ وتسعون من «شعراء الصحابة ممن مدح رسول الله ﷺ أو رثاه ».

وأنجز إحسان عبد المنان الجبالي ملحقا لكتاب المقدسي الآنف الذكر

بمناسبة تحقيقه له «في أحاديث لم يوردها المقدسي في جزئه» جمع فيه سبعة وعشرين حديثا.

وجمع الدكتور وليد قصاب في كتابه «نصوص النظرية النقدية عند العرب» ستة وخمسين نصا، كما أورد في كتابه «النظرة النبوية في نقد الشعر» مائةً وثلاثة وثلاثين حديثا، وكان قصده فيه وضع «فهرس الأحاديث والمواقف» التي وقف عليها في دراسته.

وخصص مصطفى عيد الصياصنة في كتابه «الشعر في رحاب النبوة» محورا لـ« ما روي من أحاديث ضعيفة وموضوعة» أورد فيه سبعة وعشرين حديثا، وهو الوحيد الذي فعل ذلك حسب ما وقفت عليه.

وجهود الجمع هذه لها قيمتها من حيث رصدُها للنصوص الحديثية؛ لكن دخلها الخلل من جهة عدم إخضاعها الأحاديثَ للجرح والتعديل، وعدم توثيقها والمقابلة بين رواياتها، فأوردت النص الواحد مرات مع أنه واحد تعددت رواياتُه، فضلا عن ضيق دائرة المصادر التي بحثتْ فيها، ومصطفى عيد وإن قام بجهد في هذا المجال إلا أنه اقتصر فقط على رصد بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ولم يقابل بين رواياتها.

وهناك فئة عنيت بدراسة علاقة الإسلام بالشعر كالدكتور يحيى الجبوري في «شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه»، والدكتور شوقي ضيف في «العصر الإسلامي»، والدكتور محمد مصطفى هدارة في «الشعر العربي في القرن الأول الهجري»، والدكتور عبد القادر القط في «في الشعر الإسلامي والأموي»، وسلمان بن عبد الرحمن الزهير في «الحركة الأدبية في المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين»...إلخ، كما أننا نجد كتبا عنونت بـ «الإسلام والشعر» للدكتور يحيى الجبوري، والدكتور سامي مكي العاني، والدكتورة إخلاص فخري عمارة، والدكتور فايز ترحيني.

تشترك الدراسات السابقة جميعها في كونها عنيت بموقف الإسلام من الشعر، ولم تُعن بالتمييز بين المقبول والمردود من أحاديث الشعر والشعراء، كما أن أغلبها استبعد جل كتب الحديث في جمع المادة الحديثية، فضلا عن أن من أولئك الدارسين مَن عُني بسمات شعر المرحلة أكثر من عنايته بعلاقة الإسلام بالشعر. لذلك ظل التوثيقُ والجرحُ والتعديل والمقابلةُ بين الروايات وتحليلُ الآيات والأحاديث من الأمور الغائبة.

مصطفى الصياصنة

وتتميز في الموضوع مؤلفات أهمها: «النظرة النبوية في نقد الشعر» للدكتور وليد قصاب، وقد خصصه للنقد النبوي للشعر، و«تغيير الأسعار على من عاب الأشعار» لعبد الرحمن بن زيدان العلوي(-١٣٦٥هـ) وهو كتاب في الدفاع عن الشعر والمديح النبوي خاصة، و«الصحابة الشعراء» لمحمد الراوندي، عُني فيه بإنجاز قائمة للشعراء الصحابة ودليل إلى ديوان شعرهم، ودرس في عجالة قضيةَ الإسلام والشعر، والمستوى الفني للشعراء الصحابة، و«نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده» للدكتور مصطفى عليان، وهو أهم دراسة في الموضوع، جمع بين عمق التحليل، والعناية بتخريج الأحاديث، وتنوع المصادر، والاستفادة بشكل كبير من كتب الحديث.

إن وفرة الدراسات في الموضوع تُوهم أنه قد قتل بحثا، ولم يترك المتقدم فيه للمتأخر شيئا، غير أن إخضاع تلك الجهود والدراسات للتمحيص والنقد يظهر ثغرات أهمُها:

- ضيق دائرة المصادر التي جُمعت منها أحاديث الشعر والشعراء.
- لا نعرف ما إذا كان سببُ

وفرة نصوص الشعر والشعراء الحديثية عائدا إلى تعدد النصوص أم اختلاف الروايات.

- مازلنا في حاجة ماسة إلى جمع ما لم يجمع من النصوص الحديثية.
- تكلم علماء كثيرون عن مجموعة من أحاديث الشعر والشعراء جرحا وتعديلا في كتب الحديث والفقه والتفسير..ولم تُجمع أقوالهم تلك وتصنف لتوضع رهن إشارة الأدباء والنقاد.
- لا زالت مجموعة من أحاديث الشعر والشعراء دون تخريج خاصة تلك التي أوردتها كتب الأدب والتراجم والأخبار والطبقات.
- لم نقف على أي جهد للمقابلة بين روايات تلك الأحاديث والمقارنة بينها.

وإذا كانت آيات الشعر والشعراء موثقة مقطوع بثقتها فإن الأمر مختلف بخصوص الحديث النبوي الشريف، ولذلك أمكن الحديث عن معضلة النص الحديثي، ومن الواضح أنه من غير الممكن أن ننجز بحثا علميا عن تصور الإسلام للشعر والشعراء في غياب حل لهذه المعضلة، ولا يمكن حلها في غياب التوثيق، كما لا يمكن توثيق أحاديث الشعر والشعراء إلا بإخضاعها لعلم الجرح والتعديل، ولا يتم هذا إلا بجمع النصوص والمقابلة بينها، فقد يتقوى ضعيف بكثرة طرقه، وقد يظهر لنص بدا بغير أصل سندٌ قد يوصله إلى الصحة، ...فمدار أمر التوثيق على التخريج للأحاديث والمقابلة بينها حتى إذا ما تحقق ذلك أمكن للباحث أن يدرس موضوعه وقلبُه مطمئن إلى أنه يقف على أرض صلبة، وأنه لم يعد أمامه سوى أن يحسن القطاف، وقد حان ذلك فلم يعد أمامه سوى أن يرى دراسةً ذات أصل ثابت وفرع في السماء.

يضاف إلى ما سبق كونُ القرآن الكريم يمنحنا الجديد كلما جددنا الوسائل وعاودنا النظر فيه، وأن ما يعرف بالأدب الإسلامي وله رابطة وأعضاء ومنابر وأنصار هو في أمس الحاجة إلى معرفة الأصول لا إلى مجرد التأصيل لموقف إيجابي للإسلام من الشعر، ومعرفة الأصول - فيما يتعلق بالشعر والشعراء- تقتضي الوقوف على ما ورد عنهما في الأصلين: القرآن والسنة. ولتلك الأسباب كلها رأيت أن أدرس الموضوع وأعنون أطروحتي بـ: «نصوص الشعر والشعراء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف» وحتى تكون دراستي على بصيرة: تسد الثغرات السالفة، وتحل معضلة النص، وتدرس الأصول، رأيت أن تقوم على ثلاث مراحل تؤدي كلٌ واحدة إلى التي تليها:

١- جمع أحاديث الشعر والشعراء وعرضها.

٢- توثيق تلك الأحاديث المجموعة جرحا وتعديلا ومقابلة.

٣- دراسة آيات الشعر والشعراء وأحاديثهما.

وقد قسمت البحث قسمين كبيرين:

القسم الأول: النصوص:

خصصته لنصوص الشعر والشعراء الحديثية، موزعا إياها على سبع قضايا، هي:

مفهوم الشعر، ووظيفته، وأغراضه، وسماعه، وإنشاده، ونقده، ثم الموقف منه، ومقسما كل قضية إلى قضايا فرعية.

ثم مقسما الفرعية إلى مقبولة ومردودة، وأتبعت النصوص بملحق لـ مصادر النصوص الحديثية، ثم فهارس تلك النصوص.

القسم الثاني: الدراسة:

قسمته إلى فصلين، خصصت الأول لنصوص الشعر والشعراء القرآنية، وتناولت في مبحثه الأول القضايا العامة لتلك النصوص من حيث الكم، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والسياق العام والخاص لتلك النصوص. وتناولت في المبحث الثاني القضايا الأدبيةَ والنقدية في النصوص القرآنية كمفهوم الشعر، وعلاقته بالقرآن الكريم، والنبوة، والسحر، والكهانة، وتأثيره، وطبقات الشعراء، وختمت الفصل بخلاصة جمعت فيها ما توصلت إليه من نتائج.

وخصصت الفصل الثاني لنصوص الشعر والشعراء الحديثية، فتناولت في مبحثه الأول القضايا

العامة لتلك النصوص، فدرستها من حيث الكم، والمكي والمدني، وأسباب الورود، والعلاقات، ودرست في مبحثه الثاني القضايا الأدبية والنقدية لتلك النصوص، مركزا على سماع النبي ﷺ الشعر من حيث الإنشاد والاستنشاد، وقولِه الشعر من حيث الإنشاد والإنشاء، ونقدِه النظري والتطبيقي، ثم جمعت ما توصلت إليه من نتائج في خلاصة ذيلت بها الفصل.

وجمعت في خلاصة عامة معالم التصور الإسلامي للشعر، وأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وباستثناء ما تثيره كثرة المصادر من صعوبات، وتعذر الحصول على بعض منها، وقلة المحقق من المتوفر، ورداءة تحقيق كثير مما حُقق، فإن صعوبات البحث كانت في الأعم الأغلب ذاتية ترتبط ببضاعتي المزجاة في علوم الحديث وفي مقدمتها علم الجرح والتعديل، ومن ثم وجدت نفسي ملزما بتعميق معرفتي بتلك العلوم، ولما لم يكف ذلك استعنت بأهل الاختصاص.

وقد حقق هذا البحث نتائج أهمها:

أولا: بلغ عدد النصوص الحديثية المجموعة مائتين وواحدا وخمسين نصا، وقد أثبتُّ أن ثلاثة وسبعين منها مقبولة، ومائةً وثمانين منها مردودة، وذلك دون أخذ اختلاف الروايات وتعددها بعين الاعتبار. تضمنت

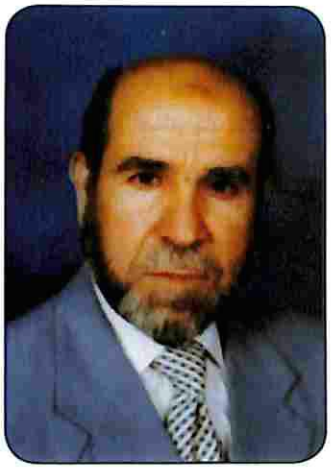

مصطفى العليان

تلك النصوص من الشعراء مائة وواحدا، منها ثلاثة عشر شاعرا انفردت بها النصوص المقبولة، ولم يزد عدد الأبيات التي ذكرت تلك النصوص أن الرسول ﷺ سمعها عن مائة وخمسة وخمسين بيتا، بينما بلغ في المردودة خمسمائة وخمسين بيتا، وقد ضاعت أشعار كثيرة صح أن الرسول ﷺ قد سمعها، منها مائةُ بيت أنشدها إياه الشريدُ وحده، فضلا عن أشعار تناشدها الصحابة بحضوره ﷺ خلال أكثر من مائة مرة حضرها جابرُ بنُ سَمُرة وشهد عليها، ومثلما ضاعت الأشعار الكثيرة فقد ضاعت أحاديث مجموعة من الشعراء، فمن مجموع مائتين وستة وثمانين شاعرا صحابيا لم أقف سوى على أحاديث ما يقارب ثمانين منهم.

ثانيا: الشعر كلام مُؤَلّف تجري عليه أحكام الكلام من حيث الحسن والقبح، والأساس في المراعاة هو المعنى لا المبنى، ويمكن توظيفه في مختلف المجالات والمناسبات لكن دون إطراء في المدح، وفحش في الغزل، وإقذاع في الهجاء، وهجاء المسلمين أو غيرهم ابتداء لا انتصافا من ظلم، وفخر بالحسب والنسب... ودون إفراط فيه، و الشعراء - بناء على تلك الضوابط - قسمان راشد تقي، وغاو شقي، وبينهما آخرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.

ثالثا: اصطبغت نصوص الشعر والشعراء بمرحلتها التاريخية، فالمكية عنيت بعلاقة الرسالة والرسول بالشعر، ولذلك فهي إما تحكي اتهاما أو تنفيه، وأما المدنية فتحدثت عن الشعر باعتباره يشكل حضورا قويا في المدينة، وعن الشعراء بصيغة الجمع، كما أنها دلت على أن الشعر كان مواكبا للمرحلة في السلم والحرب، والسفر والحضر...، ومن ثم اهتمت بقضايا الشعر من حيث مفهومه وضوابطه ووظيفته...إلخ.

رابعا: كان العرب يميزون الشعر عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهو ما تشهد له ثلاثة أحاديث صحيحة لا مجال لردها، إلى جانب تضمن آيات قرآنية ما يؤكد أن الاتهامات ليست سوى مزايدات، فالمتهمون كانوا يعرفون شعرهم حق المعرفة مثلما كانوا يعرفون سحرهم وكِهانتَهم... ونفي هذا نفي لذاك، ونفي الجميع طعن في معرفة العرب بأشياء من صميم حياتها اليومية. والقرآن الكريم لم يترك وسيلة للتمييز بينه وبين الشعر إلا سلكها بدءا من تحديد صفاته ووظائفه ومُبلغه وموضوعاته، ومرورا بمصطلحاته، ثم انتهاء بالتحدي.

خامسا: الشعراء في الإسلام فئتان كبيرتان: غاوية وراشدة، تمد الشياطينُ الأولى بالشعر، وتؤثر في المتلقي بسلوكها طريقَ الغواية، وفنونَ القول، ومخالفةَ الأقوال للأفعال، ومن ثم أشبهت السحرة والكهنة في الانحراف ومصدر التلقي والتأثير...، بينما تستمد الفئة الثانية شعرها من مصدر إلهي، فهي معانةٌ عليه، وتجمع بين صحة العقيدة وسلامة التطبيق وشجاعة الدفاع عن الحق، ثم لا تجعل الشعر همَّها وإن كان في الثناء على الله عز وجل، حتى لا يطغى على أمور أخرى أهم كقراءة القرآن الكريم، لذلك كانت هذه الفئة قلة لكنها في الوقت نفسه «خيرُ البريئة».

سادسا: سمع الرسول ﷺ الشعر واستنشد، وما سمعه يرتبط بالجهاد والرد على المشركين والمدح والهجاء ثم الاعتذار، ومعاني تلك الأشعار شريفة بعيدة عن الفحش والإسفاف...، وقد كان تارة يدعو للشاعر، وأخرى يعبر عن استحسانه لما سمع، وثالثة يكرر بعض ما سمعه، ورابعة يصحح خطأ دون أن ينسف قصيدة بسببه، وخامسة يكتفي بالابتسام. وأنشدَ الشعر مرات عديدة، وقد أنشد أحيانا شطرا، وأخرى بيتا، وثالثة أكثر من ذلك حسب الحاجة ونسقِ الأبيات، ولم يصح أنه كسر وزن بيت، أو أعطى مالا لشاعر بسبب شعره، وجميع الأحاديث التي وقفت عليها وتتحدث عن ذلك ضعيفة؛ بل منها ما هو موضوع.

سابعا: كان الرسول ﷺ يدرك قيمة الشعر لذلك وظفه في مناسبات مختلفة، وحدد له ضوابط تمنعه من التسيب، والشعر عنده بمنزلة الكلام، منه حسن ومنه قبيح، وهو وسيلة للجهاد، يحدو به الحداة، ويغنيه المغنون، ويتمثل به المتمثلون، يمكن استعماله في أغراض ومناسبات مختلفة، منه الصادق ومنه دون ذلك، ولا ينبغي الإفراط فيه في المسجد وفي غيره، بل يُعنى به دون تضخيم ولا تقزيم.

ثامنا: انفردت الأحاديث المردودة بأمور، منها جعلُها إعطاءَ الشعراء سنة نبوية، وإيرادُها لأشعار هواتف الجنان، ولنصوص شعرية على أن الرسول ﷺ قد سمعها وفيها فحش وإسفاف وعصبية، وتأكيدُها على أن الرسول ﷺ كان يكسر أوزان الأشعار التي يتمثل بها، وأنه قد مَدَح بعض الشعراء الجاهليين كعنترة، وذم آخرين كامرئ القيس.

وقد ناقش عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية الحسين زروق أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بعنوان «نصوص الشعر والشعراء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف» بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز التابعة لجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس مساء يوم الخميس ٢٨ أبريل ٢٠٠٥ أمام لجنة تكونت من: د.محمد المالكي رئيسا، ود.عبد الرحيم الرحموني مشرفا ومقررا، ود.محمد الأمين، ود.عبد العلي حجيج، ود. عبدالله الغواسلي المراكشي أعضاء. وقد منحت له الدكتوراه بميزة مشرف جدا ■